إلى روحى أبى وأمى:

عبد الغنى مرسى شامة

ولبيبة حامد ندا

﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الوحى الإلهى فى مصدره حق، لأنه صادر عن الحق، ونزل به روح القدس بالحق، والحق ضد الباطل. والحقائق حق، والأباطيل والأساطير وهم وخرافة، ومن غايات النص الإلهى ما ورد: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، إلا أن العقول لا تستطيع أن تتحمل هذا الحق، لأنه ثقيل على النفس فى كثير من الأحيان: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل: ٥]، فإذا بها تعرض عنه، أو تتخفف منه، أو تمزجه بغيره، أو تنشئ حوله أساطير تجعلها معلقة بهذا الحق لتحقق إشباعاً للنفس.

وكلما جرى على النص الإلهى مثل هذا، كلما جاء الوحى بنص جديد خالٍ من الباطل صادع للحق، فيجرى عليه ويسرى ما جرى على النص السابق، بل العجب أن تصبح الأسطورة، ويصبح الخيال بمضى الزمن جزءاً مدوناً ضمن الحق الموحى به.

ومن أوضح الأمثلة على هذا، أن القارئ للكتاب المقدس، بعهديه: القديم والجديد، يدرك بقية من حق، كسكنى آدم الجنة، وخلق حواء، فضلاً عن نبوة نوح، والطوفان، وأسماء بعض الرسل، بما لايستطيع إنسان إنكاره، لأن مثله فى القرآن الكريم، وبخاصة الوصايا العشر، ويرى فى الوقت نفسه عجائب وغرائب تتحدث عن الوسوسة، والحية، وإبليس، والمرأة وعقوبتها، وسفينة نوح،

والأصناف التى كانت فيها، ويلحق بهذا الكثير بحق الذات الإلهية، والأنبياء والرسل وغيرهم. وقد صار ذلك بمضى الزمن وحياً إلهياً مزعوماً، بل صارت رؤيا يوحنا اللاهوتى جزءاً من العهد الجديد، فضلاً عن أعمال الرسل، ورسائل بولس، والسبع الكاثوليكية فى ظل هذا الموروث الإلهى الموحى به إلى السابقين، والذى لم يرع أتباعه حقاً لهذا الوحى.

جاءت كلمة الله الخاتمة إلى البشرية جمعاء، موصوفة بصفات شتى، منها: " الحق "، والخلو من الأساطير، والخلو من الكهانة، والسلامة من التعارض، والقطع بأن كل كلمة فيه وحى إلهى، وأنها مراد إلهى، ليس للبشر فيها نصيب من حيث النزول.

وقد حُفِظَ النص بحفظ مُنَزِّله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا خلت آياته من الأساطير، وقد رد القرآن الكريم على من زعم هذا، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٥ – ٦]

ولما كان الكثير من القصص متعلقاً بوقائع قد مضى عليها من الزمن ما لا يعلمه إلا الله، وكثير منها غيبى لا أثر يدل عليه، وورد بعضه فى فكر أهل الكتاب وثقافتهم، فإن بعض علماء الإسلام، وبخاصة المفسرين، قد نقل الكثير بحق النص القرآنى لتقوم الأسطورة بالفكر الإسلامى، لا بالنص القرآنى.

ونظراً للضعف الفكرى، وانحدار المستوى العقلى، وبدلاً من إجهاد العقل فى الاستنباط من النص، أو فهمه كما ينبغى بما يتناسب مع الزمان والمكان والمعطيات، فإن كثيرين قد مالوا إلى التركيز على الأسطورة ذات الصلة بالنص، دون التأمل فى النص ذاته.

وقد لعب الدعاة الدور الأكبر فى نشر الأساطير، معلقين بها على النص القرآنى، حتى نسى الناس الحقيقة وعاشوا الأسطورة، ندرك ذلك واضحاً فى خطبة عيد النحر مثلاً، فبدلاً من الحديث عن التكافل الاجتماعى فى المناسبات السارة: " زكاة الفطر "، " أضحية النحر "، وبدلاً من الحديث عن يسر القيم المستنبطة من حجة الوداع على المستوى الأسرى، والدولى، وبدلاً من الحديث عن يسر التشريع الإسلامى فى الحج " افعل ولا حرج "، نرى كل الخطباء يتكلمون عن ذبح إسماعيل، وعن السكين، وعن حوار إسماعيل مع أبيه قبل الذبح، وعن حديث إبليس مع إبراهيم وإسماعيل، وعن الوصايا التى وصى بها إسماعيل أباه عندما يرجع إلى أمه، وعن الكبش وصفته وعمره ومصدره ومرعاه، وعن بقاء رأسه معلقة على الكعبة آلاف السنين.....إلخ

ومثل هذا ماورد بحق كثير من الغيبيات، بدءاً من آدم عليه السلام، وانتهاءً بعيسى عليه السلام، وهذه سمة العامة، وشأن العوام.

وإذا كانت الأسطورة تستهوى طائفة من الناس، فإنها فى نفس الوقت تسبب صدمة عقلية لعقول الصفوة، فتحركها من سبات، وتبعثها من رقاد، وتدفعها إلى رفض هذا الموروث، وتنظر إليها فى ضوء غايات القرآن ومقاصده، فترى فى المنتج الفكرى الأسطورى ترديا، وفى الدعوة إليه تخلفاً، وفى الاستنباط العقلى ضرورة، وفى التحرير الفكرى مسئولية، وفى إماطة اللثام عن المقاصد الحقة للأفهام فرض عين.

هذه العقول الفذة تجهد أصحابها، وتجهد محبيها، وتجهد مبغضيها:

فأما إجهادها لأصحابها، فلأن قدح الذهن ليس بالأمر الهين، أو السهل اللين، بل لابد من شرارة البدء، ودوران الفكر، وإقلاق المضجع، ومراجعة النفس فترة حمل الفكرة، والتى تستغرق ساعات أحياناً، وأحياناً شهوراً وسنين

عدداً، حتى يكون المخاض، وهو فى الفكر أشق منه فى ولادة البشر. فالفكرة العامة فى داخلها أفكار شتى، كلٌّ منها يولد تباعاً، أو على فترات متقاربة أو متباعدة، حتى إذا فرغ الإنسان من كتابة الفكرة، يشعر وكأن حملاً ثقيلاً قد ألقى عن ظهره، وأن ديناً قد أسقط عن كاهله. وتبقى المشكلة قائمة حول الترحيب بهذا المولود، أو التبرم منه والإعراض عنه، وهل يكون مصدر سعادة أو شقاء لصاحب العقل الذى أنتج هذا الفكر، فكم نَعِمَ أناس بالهزل الذى سطروه، وكم أوذى وحورب أناس بالجد الذى أبدعوه !

وأما إجهاد المنتج العقل لمحبيهم، فلأنه يتطلب منهم سرعة الركض، وتوسيع دائرة الفكر والمعرفة بمذاهب شتى، وأفكار متنوعة، حتى يمكن استيعاب المقروء، وتوفير القناعة على صلاحية البضاعة مع حسن العرض وجودة المنتج. وكلما اتسعت دائرة ثقافة المحبين وأهل الاعتدال، كلما وجدوا وجهاً لهذا أو ذاك المقال، وإنما هى لمسة جمال أضيفت على هذه الأفكار، أو حبات عقد جُمِعَت ونُظمت، وجمعها تطلب جهداً، ونظمها تطلب علماً وفناً، فكانت هذه الإبداعات كما قال الإمام البوصيرى:

فالدر يزداد حسناً وهو منتظم * وليس ينقص قدراً غير منتظم

وأما إجهاد الأفكار الجادة لمبغضيها فمن جوانب شتى:

- الحقد والحسد على صاحب الإبداع.
- العجز عن استيعاب هذه المستجدات الفكرية.
- العجز عن إبطال هذه الأفكار لانعدام الدليل، وضعف الحجة.

ومن العجب أن أصحاب هذا التيار، إذا تعذر عليهم الاستيعاب، وسقطت منهم الحجة، لا يجدون سبيلاً يصفون به مثل هذه الإشراقات الفكرية إلا من تراثهم الثقافى، فيقولون عنها: تخريف، أضغاث أحلام. ويصفون صاحبها بأنه:

متفلت فكرى، أو متخلف عقلى، وما دَرَوْا أن كل إناء بما فيه ينضح.

إن هذا الكتاب - مفهوم الأسطورة فى القرآن الكريم - باعث للعقل، محرك للفكر، مُقَوٍّ للحجة، خارج عن التقليد والاتباع، مُؤَدٍّ إلى التجديد والإبداع، سائلاً الله لمؤلفه الحفظ والسلامة، ودوام العطاء، ولقارئه القدرة على الفهم الحسن.

والله ولى التوفيق

أ.د/ بكر زكى عوض
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر
تلميذ المؤلف*

* أصر الأستاذ الدكتور بكر زكى عوض على إثبات هذه المعلومة، وهذه يدل على نبل خلقه ووفائه لأساتذته، وإزاء هذا الإصرار تركتها لتكون تراساً للأجيال، حتى لايضيع الوفاء فى زحمة الأنانية ونكران الجميل الذى أصبح سمة هذا العصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اهتم الإنسان بدراسة التاريخ، لأنه يشبع رغبة داخلية عنده، تدفعه إلى سماع سيرة الناس وأخبارهم، ولأن قصص السابقين لون من ألوان الفكر البشرى، مال إليه الإنسان، عندما تبين له أن معرفة الأحداث الماضية تساعده على استغلال حاضره، والتخطيط لمستقبله. كذلك فى دراسة التاريخ عبرة، تستفيد منها المجتمعات، لتصحيح مسارها فى جميع مجالات الحياة.

ولذا لم يخل مجتمع من المجتمعات البشرية من ممارسة هذا اللون من الثقافة، غير أن أسلوبه اختلف من مجتمع لآخر؛ ففى المجتمعات البدائية كان اللون السائد فى هذا المجال قصص البطولة والشجاعة، صاغها الإنسان فى أسلوب يغلب عليه الطابع الأسطورى، وفى القرون الوسطى تغلب الحديث عن الأسر الحاكمة على غيره من أنواع أنشطة الإنسان فى مختلف جوانب الحياة.

ولما كان الدين هو محور الحياة فى العصور القديمة، فقد تغلب الطابع الأسطورى على كل ماورد فى الكتب المقدسة؛ إذ لم تخرج النصوص الدينية — فى معظمها — عن سرد لتاريخ السابقين من أنبياء ودعاة، فجاءت تعاليم الدين ومبادئه مبثوثة فى طيات السرد التاريخى، ومن أشهر الأدلة على ذلك الديوانان المنسوبان إلى (هوميروس Homere)، أعنى الإلياذة والأوديسا، وهما سلسلتان من القصص الشعرى عند قدماء اليونان، إذ نقرأ فيهما مغامرات اليونانيين فى الأشعار، وقصص أبطالهم وشجاعتهم فى الحروب، وتنافسهم فى الغنائم

والأسلاب، وفى طيات هذا كله نقرأ أسماء آلهتهم وآلهة خصومهم، ووصف ما كان يقدم لهم من القربان والضحايا، وما يرفع لهم من توسلات المظلومين والمكروبين، كما ذُكِر فيهما أيضاً المحاورات والمشاورات التى كانت تجرى بين آلهة السماء، كما كان يتصوره اليونانيون آنذاك.

ولم تقتصر هذه الظاهرة على أديان قدماء اليونانيين، بل كان سمة كل الأديان فى جميع بقاع الأرض، بل إن اليهودية والنصرانية لم يشذا عن هذه الظاهرة، فمن يقرأ الكتاب المقدس، يجد أنه لا يخرج عن كونه قصصاً للأنبياء السابقين، وجاءت التعاليم الدينية بين ثناياها، فبدت وكأن القصة هى المحور، ومبادئ الدين وتفاصيل العبادات ملحقة بها، فتعاليم الدين تستنبط من أحداث القصة.

غير أن القرآن الكريم اختلف عن هدا كله، فهو ليس كتاباً تاريخياً، أرخ فيه لحوادث ما سبق من الزمن، ولا سجلاً لأخبار من سبق من الأنبياء والصالحين، وإنما هو — فى المقام الأول — كتاب هداية، يبين للناس فيه العقائد الصحيحة، ومبادئ السلوك الطيب، والنظم الاجتماعية التى ينبغى على المجتمعات تطبيقها، كى يستقيم أمرها، وينصلح حالها، وتعيش فى أمن وأمان، وطمأنينة وسلام، يقول الله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة: ٢ - ٥]

ويقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾ [الإسراء: ٩]

ويقول: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]

وغير ذلك من الآيات التى تبين: أن القرآن الكريم كتاب هداية، وعلاج للأمراض الاجتماعية، وليس كتاباً تاريخياً، فإذا جاء فيه حديث عن الأولين، كان تناوله لأخبارهم بعيداً عن السرد التاريخى، إذ يذكر جانب العظة فقط، ضارباً الصفح عن الأحداث التى لا تدخل فى هذا الجانب، ولا تؤدى إلى الغرض الذى من أجله سيق الحدث، ألا وهو العبرة والعظة، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]

ولهذا لانجد قصة كاملة — من ألفها إلى يائها — فى القرآن الكريم، بل نجد الجانب الذى يتطلبه المقام فقط، ومن هنا نجد الحديث عن كل نبى فى أكثر من موضع، لأن ما يذكر فى هذا النص غير الذى يذكر فى نص آخر، لاختلاف المقام الذى يتطلب نوعاً معيناً من الاستشهاد بتاريخ الأنبياء السابقين، فإذا أردنا أن نتحدث عن الأنبياء الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم، فإن الأمر يتطلب جمع هذه الأخبار المتناثرة عن كل نبى، وترتيبها لينسج منها عقد تاريخى لهؤلاء الأنبياء، وحتى لو حدث هذا، فإن ما ينتج عن هذا العمل لن يكون قصة كاملة عن تاريخ لهؤلاء الأنبياء، بل صورة خاصة تعرض للجوانب التى تتعلق باصطفاء الله لهم، ليبلغوا رسالته لأقوامهم، ولما حدث بينهم وبين أقوامهم من مناقشات حول ما جاءوا به من عند الله، لأن هذا هو الجانب الذى ركز عليه القرآن الكريم، ليضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون فيما يبلغهم به محمد ﷺ من وجوب الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ليدركوا أن طاعة الله تقودهم إلى الصلاح فى الدنيا، والفلاح فى الآخرة، كما حدث مع

من سبقهم ممن أطاعوا رسل الله، فامتثلوا لما أمروهم به، عقيدة، وعبادة، وسلوكاً، وأخلاقاً.

فالقصة ليست تاريخاً يعبر عن حوادث وقعت، وإنما هى من قبيل ضرب الأمثال للعظة والاعتبار. ولا ينفى هذا أنه ورد الحكم عليها بأنها القصص الحق، فوصفها بالحق لأنها تشرح الحق وتقرره، لا لأنها ذات حقيقة تاريخية ثابتة، وليس أدل على هذا المعنى من قصة أصحاب الكهف، تلك القصة التى ورد بشأنها قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف: ١٣]، فقد قال بعض المفسرين القدامى: إن القرآن الكريم لم يذكر فى هذه القصة الحقيقة التاريخية، وإنما ذكر ما كان يعرفه اليهود وأهل الكتاب عن عدد الفتية وعدد السنين؛ إذ " يذكر الدارسون للقرآن والشارحون لأسباب النزول أن قصة أصحاب الكهف إنما نزلت عن إجابة عن أسئلة توجَّه بها المشركون من أهل مكة بإيعاز من اليهود إلى النبى ﷺ ليعرفوا: أمن الأنبياء هو أم من المتنبئين؟ ويذكر الدارسون والشارحون أن المشركين حينما رجعوا من المدينة، أو رجعوا من عند اليهود، إنما رجعوا ومعهم المقياس الذى يقيِّمون به صدق نبوة النبى، وصحة رسالته، ولم يكن هذا المقياس إلا لإجابة عن الأسئلة.

هنا نستطيع أن نسأل هذا السؤال: ما الإجابة التى يتوقع المتوقع أن يترل بها الوحى من السماء ليثبت نبوة محمد وصدق رسالته؟ أهى الحقيقة التاريخية عن أمر أصحاب الكهف أم هى الإجابه التى ذكرها اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة وجعلوها المقياس الذى يقاس به أمر النبى ﷺ؟

أعتقد أنك قد فطنت أن الإجابة الثانية هى المطلوبة لأنها وحدها المقياس الذى وضعه اليهود فى يد المشركين، ولأنها التى تثبت حقاً أن الوحى يترل من السماء، لأن معرفة ما قاله اليهود للمشركين قد تكون أشق وأعسر من معرفة

الحقيقة التاريخية من أمر أصحاب أهل الكهف، لأن المعرفة الأولى معرفة الخبايا والأسرار، والمعرفة الثانية معرفة الوقائع البشرية التى يسجلها التاريخ والتى يتناقلها الرواة والأفراد.

هذا الذى نقول به هو الذى يتَّضح تماماً من فن بناء القصة فى القرآن.

لماذا ردَّد القرآن الكريم عدد الفتية من أصحاب الكهف بين الثلاثة الرابعهم كلبهم، والخمسة السادسهم كلبهم، والسبعة الثامنهم كلبهم؟ لماذا ردَّد ولم يذكر العدد الحقيقى لكل هؤلاء؟

ولماذا لم يذكر القرآن الكريم العدد الحقيقى للسنين؟ لماذا قال: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف: ٢٥]، ثم أعقبه بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف: ٢٦]

لماذا كل هذا؟

لا نستطيع أن نتصور أن هناك من يدعى أن المولى ﷻ كان يجهل العدد الحقيقى من أمر هؤلاء الفتية، فالله يعلم السر وأخفى، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وحاشا للمولى ﷻ ألا يتعلق بعلمه أمر ما فى الأرض أو فى السماء.

إن الترديد فى العدد، وإن التجهيل فى أمر السنين، لم يكن إلا لحكمة يريدها المولى، وليست الحكمة فيما نرى إلا أن يترل القرآن بما قالته اليهود للمشركين، ومن هنا كانت أيضاً هذه النصائح التى يذكرها القرآن الكريم فى القصة.

لقد كانت إجابات اليهود غير مُوَحَّدَة، ومن هنا كان ما ترى فى القصة من تجهيل وترديد. فن بناء القصة فى القرآن الكريم يشعر بما نذهب إليه من أن صفة الحق فى هذا الموطن لم تطلق على النبأ من حيث هو حق فى ذاته، وإنما أطلقت

عليه من حيث هو شارح للحق ومُبَيِّنٌ له.[١]

وهذا يقودنا إلى ما ضُرِب فى القرآن الكريم من أمثال، هل تعبر هذه الأمثال عن حقيقة لها وجود أم أنها تحمل فى طياتها معانٍ سامية، ومبادئ عليا، يجب على المؤمنين الالتزام بها، حتى تسلم الأمة، أفراداً، وجماعات؟ ولما كانت هذه المعانى لا يدركها إلا المفكرون والفلاسفة، فقد صاغها الله بأسلوب يفهم من ظاهره عامة الناس صورة أشبه بالأسطورة منها بالحقيقة، وهذا أمر ضرورى وعنصر أساسى فى كل الأديان، كى لا ينصرف معظم شرائح المجتمع عن الدين لأنهم لم يفهموا نصوصه المقدسة، فالعامة ينسجون الأساطير حول هذه النصوص، من أمثال وقصص، والمفكرون يستنبطون منها القيم العليا، التى تقود المجتمع إلى الرقى والتقدم، وهذا ما انفردت به قصص وأمثال القرآن الكريم عن الكتب المقدسة السابقة؛ إذ أنها فى الأديان الأخرى لا تحمل إلا الجانب الأسطورى، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦]

وعليه فسوف نعرض فى هذا الكتاب عدة نماذج من قصص القرآن الكريم وأمثاله - بالإضافة إلى بعض المصطلحات والأعلام -، التى نسج العامة ومتوسطو الثقافة حولها أساطير لا يقبلها العقل، ولا يستسيغها العصر، فنبين ما فيها من معانٍ سامية، وقيم عليا تقود المجتمعات الإنسانية إلى ما فيه صلاحها وفلاحها.

---

١) خلف الله صـ ٢٤ - ٢٥.

لكن، لماذا جاءت القصص والأمثال فى القرآن الكريم حاملة المعنيين، الأسطورى — إن صح هذا التعبير — والعقلى؟

لأن المستوى الثقافى فى أى مجتمع إنسانى متدرج، من أبسطه إلى أعلاه، ومن المشاهد أن غالبية أفراد المجتمع تميل إلى المحسوس، فلو جاء النص القرآنى يخاطب العقل فقط، لانصرف عنه معظم الناس، فكان لابد أن يراعى هذا الجانب كى يجذب إليه هذه الجموع، ثم يضمنه المعانى السامية التى يستسيغها المفكرون والفلاسفة. فأسلوب القرآن الكريم يفهمه البدائى فى كهفه وبيدائه ومغاراته، كما يدرك أسراره العالم فى حلقاته العلمية ومدرجاته الدراسية، أحمرهم، وأسودهم، وأبيضهم، سواء كان فى مجاهل الكرة الأرضية، أو فى بروجها وناطحات سحابها، فكلام الله مائدة عامرة لكل الأفهام الإنسانية.

يحمل القرآن الكريم أسراراً عدة، وقضايا فكرية متنوعة، لازال العلماء يكشفون عن مكنونها، ويبينون ما فيه من قيم ومبادئ تناسب كل العصور، وتتواءم مع كل أنظمة الحياة الإنسانية، ولن ينضب معينه عبر القرون والأزمان، فسوف يكشف اللاحقون من العلماء ما خفى عنا، كما نحاول أن نكشف ما خفى عن السابقين، ولن يتوقف هذا الفيض الربانى عن الظهور جيلاً بعد جيل، وعصراً وراء عصر، مادامت الأمم تفرز من بين أبنائها من يوفقه الله — بفضل جهودهم العلمية — إلى كشف المزيد من أسرار القرآن الكريم.

وسوف نحاول بقدر الإمكان إلقاء الضوء على الجانب الأسطورى لمفهوم النص عند العامة، مستندين إلى ماورد فى هذا الصدد فى التراث الإسلامى موجزاً فى النص ومسهباً عند الاقتضاء فى الهوامش، تجنباً للعبء على القارئ، وإعطاءً للفرصة لمن يريد الاطلاع على تفصيلات الأساطير فى الهوامش، معتمدين فى هذا كله على المصادر المعتمدة علمياً، ثم نبين الجانب العقلانى الذى

توصلنا إليه فى النص، كى نثبت أن النص يحمل من الأسرار ما خفى عن السابقين، ومازال يحمل الكثير من الأسرار والمعانى التى لا نستطيع الوصول إليها، وربما تستطيع الأجيال القادمة كشف أسرارها، فهو كتر مليء بأسرار يكشف جيل تلو آخر ما تمكنه ثقافته من كشفها، ولن ينضب معينها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والله أسأل أن يجعل هذا خالصاً لوجهه تعالى، لخدمة هذا الدين الحنيف.

محمد عبد الغنى شامة

تمهيد

ظهرت مصطلحات على الساحة الفكرية فى المجتمع الإسلامى، لم تكن معروفة عبر تاريخ الفكر الإسلامى، فهى وليدة الحضارة الغربية، دفعت بها إلى الفكر الإنسانى ظروف العلاقة بين الكنيسة والمجتمع، إذ تسلطت الكنيسة على الفكر الغربى، فلم تسمح بحرية التعبير، ولم تقبل أى نوع من أنواع الإبداع الفكرى إلا فى إطار ما يخدم الكنيسة، أو يسجل تصورها الذى انحسر فى مجال ما تمليه القساوسة، وما تصدره الكنيسة من قرارات تحمل الطابع الدينى الذى لايجوز لأحد معارضته أو الخروج عن إطاره.

وكان من الطبيعى إزاء هذا الحصار الفكرى أن يتمرد عليه أناس تميزوا عن غيرهم فى القدرات الفكرية، والإمكانات الإبداعية، فخرجوا عن مسار الكنيسة، فثبتوا أفكاراً وتصورات لا تعرفها الكنيسة، وبالتالى لا تقرها، ولا تسمح بها، بل شنت عليهم حملة شعواء، وقادتهم إلى المحاكم ليكونوا عبرة لغيرهم حتى لا يفلت الزمام من أيدى قساوستها. ولكن بمرور الوقت أتيحت لهذا التيار فرصة الظهور شيئاً فشيئاً، وذلك بما اكتشفه فى مجال البحث الطبيعى من قوى متعددة: قوة الجاذبية، وقوة البخار فى الصناعة، وقوة الكهرباء...إلخ باعدت بينه وبين الكنيسة، أو بتعبير آخر: ظهر فى المجتمع الأوربى تنازع بين السلطتين: الدولة والكنيسة، أو بين الدنيوى والمقدس. تَقَوَّى الجانب العلمى بهذه الاكتشافات حتى جرف أمامه سلطة الكنيسة وحصر مسائل الدين فى المجالات الشخصية وداخل دور العبادة، أما الأمور الحياتية فتجردت من سلطة الدين، وانطلقت بعيدة عن مجال القداسة، فأصبح للدولة مجال، وللكنيسة مجال: تكون للدولة الشئون السياسية والاقتصادية والتعليم والتشريع، ويكون

للكنيسة شئون الأسرة فى مراسيم الزواج، وطقوس الوفاة، ونظام الرهبنة والإكليروس. وهو ما أطلقوا عليه مصطلح: " **العلمانية** " الذى كثر الحديث فى هذه الأيام عنها، بين مؤيد ومعارض، بينما لا يستطيع أكثر الناس تحديد ما يعنيه هذا المصطلح على وجه الدقة، ولهذا نقدم - إضافة إلى ماسبق - شرحاً مبسطاً لمعناه ومدلولاته:

" **العلمانية** ": تنسب على غير قياس إلى العالم أو العالمية " Secularism ": هى نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الدينى والعبادة الدينية... هى اعتقاد بأن الدين والشئون الإكليريكية (اللاهوتية والكنسية) والرهبنة لا ينبغى أن تدخل فى أعمال الدولة، وبالأخص فى التعليم العام. والتحول إلى العلمانية هو التحول من المَلَكية الدينية إلى المَلَكية المدنية، أو من الاستعمال الدينى إلى الاستعمال المدنى.... هو التخلص من سلطة الرهبنة والعهد الرهبنى... هو التحول إلى الانتماء المدنى. [٢]

" **والعلمانى** " Secular ": هو الشخص الذى يهتم بأمور العالم المادى، أى يرتزق من خلال عمل يؤديه فى أى شان من شئون العالم المادى (الدنيا)، كالنجار، والطبيب، والقاضى، والفنان، والمعلم....إلخ

وهو عكس الشخص الكهنوتى الذى يهتم بأمور العالم الآخر "اللاهوت"، أى يكسب رزقه من خلال العمل فى هذا المجال مثل المشايخ والقساوسة والحاخامات وسائر رجال الدين، والعرافين والسحرة والمنجمون.....إلخ

بهذا المعنى البسيط يكون كل الناس علمانيين، سواء كانوا متدينين أو غير متدينين، فالطبيب شخص علمانى، ولكنه إذا قرر أن يتفرغ للعبادة أو

---

٢) البهى: العلمانية..... صـ ٤.

للدراسات الدينية، وأن يرتزق بشكل كامل من خلال الاهتمام بشئون العالم الآخر، فإنه يتحول إلى شخص كهنوتى، أى غير علمانى.

من هنا نفهم أن لفظ العلمانية قد جاء من كلمة: عالَم، وليس من كلمة: علْم، ذلك أن رجال الدين كانوا يحكمون أمور العالم المادى وأمور العالم الآخر (الدين) بأحكام مشتقة من الكتب الدينية، فلما ثبت فى الكثير من الأحيان خطأ ما تصدره الكنيسة من أحكام، مثل: القول بأن الأرض مسطحة، وأنها مركز العالم، وأن الشمس هى التى تدور حول الأرض... وغيرها، طالب الناس رجال الدين بالتوقف عن حكم العالم من خلال الكتب السماوية، وترك الناس يحكمون العالم المادى بقوانين هذا العالم التى بدأ العلم فى اكتشافاتها فى مختلف مجالات الحياة العلمية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. وكانت انطلاقة الفكر العلمانى فى بداية عصر النهضة والحضارة الحديثة، أى أن العلمانيين يقولون: دعونا نحكم العالم بقوانين العالم، ونحكم الدين بقوانين الدين، لأن الخلط بينهما يؤدى إلى التخلف والجمود.

فالدين مطلق، ثابت، لايقبل القسمة، أما العالم فهو نسبى، متغير، تحكمه الحركة الدائمة. والخلط بين المطلق والنسبى يؤدى إلى إحدى حالتين: إما سيطرة المطلق على النسبى، مما يؤدى لجمود العقل وعدم التطور، أو تحطيم النسبى للمطلق إذا كان النسبى من القوة بمكان، مثل انتشار الإلحاد بعد اكتشافات " كوبرنيكس وجاليليو، وكروستوفر كولمبوس " وغيرهم.

إذن فالعلمانية مجرد أداة لتنظيم المجتمع، ومنع الخلط بين المطلق والنسبى، أو بين أحكام الدين وأحكام العالم الدنيوى، وذلك لمصلحة كل من الدين والدنيا.

هذه الأداة إذا استخدمها نظام استبدادى معادٍ للحرية كالأنظمة الشيوعية

السابقة مثلاً، فإنه سينكر حرية العقيدة، كما سينكر سائر الحريات الفردية الأخرى، مما يؤدى لإضعاف العقائد الدينية، والتضييق على المؤسسات الدينية، وإذا استخدمها نظام ليبرالى يقدس الحريات الفردية: السياسية، والدينية، والاقتصادية، مثل: الأنظمة الليبرالية فى أوربا وأمريكا، فحينها تنتعش الحرية فى كل مجالات الحياة، ويتمتع المواطنون بحرية التعبير، وحرية المشاركة السياسية، وحرية النشاط الاقتصادى، وحرية ممارسة العقيدة الدينية.

ويؤدى النظام العلمانى خدمات جليلة للمؤسسات الدينية، فهو يعتقها من سيطرة المؤسسة السياسية، ويمنحها بحكم القانون الاستقلالية الكاملة فى شئونها الإدارية والمالية والدعوية، مما يعيد ثقة المؤمنين فيها لاستقلالها عن السلطة، ويؤدى لازدهار هذه المؤسسات، وازدياد قدرتها على الدعوة والتبشير.[٣]

" الإنسان فى ظل مبادئ الإسلام لا يرتفع إلى مستوى الألوهية والقداسة فى التقدير، كما لا ينزل إلى مستوى الحيوان فى السلوك والمعاملة، ولا يعصم عن الخطأ فى الحكم والرأى والسلوك، بل كما يصيب: يخطئ... والوظيفة العامة التى يتقلدها الإنسان - أيًا كانت مرتلتها — لا تغير من خصائص طبيعته البشرية... وحكومة الإسلام فى تطبيق مبادئه ليست إلهية، بل هى بشرية **تخضع للنقد، وتقبل الشورى والمطالبة بها**، ورأى الإنسان (أو اجتهاده) لا يلتزم به إلا الإنسان صاحب الرأى نفسه، وإمام المسلمين، أو رئيس دولتهم هو - بحكم نظام الإسلام فى الخلافة — من الخيرة بينهم: إيماناً بالله، ومعرفة بمبادئ الإسلام، وأكثرهم تجنباً للظلم والاعتداء، وإحقاقاً للحق، وإقراراً للعدل.

" والعلمانية إذن ليس لها مكان فى وجود الإنسان مع الإسلام، فإما أن

---

٣) إسماعيل حسنى: www.ahewar.org/debat/show.art.asp?=٢٤٧٠٦٦

يوجد الإسلام ولا علمانية، أو توجد العلمانية ولا إسلام. والعلمانية فى تصور بعض المسلمين المعاصرين، وفى محاولة التوفيق بينها وبين الإسلام فى مجتمع إسلامى.. تعود إلى قصور فى تصور الإسلام، ثم إلى رغبة فى محاكاة حلول فى تفكير الغرب لمشاكل كانت وليدة البيئة الغربية، ونتيجة الصراع فيها حول السلطة والتفرد بالقوة فى كل جوانبها فى المجتمع الأوربى." [٤]

لم يعط الإسلام أحداً — مهما كان مركزه — الوصاية فى الفكر على الآخرين، كما كان وضع البابا فى المجتمع المسيحى قبل عصر النهضة، كما أنه لم يبرئ أحداً من الخطأ — أو بالتعبير الاصطلاحى: لم يعصم أحداً من الخطأ — بحيث يفرض رأيه على المجتمع، بحجة أنه لايجوز نقده، لأن النقد لا يوجه إلا لمن يخطئ، وما دام خطؤه مستحيلاً، فنقده جريمة يعاقب عليها من يتجرأ على مخالفته، كما هو وضع البابا بالنسبة للمسيحيين. فإذا انتفت الوصاية الفكرية فى الإسلام، فإنه يحل لكل فرد فى **ظله** أن يفكر بحرية، ويعبر عن تفكيره دون حجر عليه، ومن غير قيود تفرض على حرية التعبير عن رأيه. وكان لمبدأ انتفاء العصمة عن الإنسان أثر فى اتساع حركة النقد، إذ أنه أجاز نقد أى فكر مهما كان مركز صاحبه، فليس هناك من يتمتع بحصانة ضد الآراء المخالفة له، حتى وإن علا شأنه فى المناصب الروحية، فتقلد أعلى المناصب الرسمية، أو تربع فى مقام من يعتقد العامة فى قداسته، لقربه — حسب ما يعتقدون — من صاحب الرسالة نسباً أو علماً، أو تقوى وصلاحاً. [٥]

وبناءً عليه، فلا مكان للعلمانية فى المجتمع الإسلامى - أو بتعبير آخر: ماتطالب به العلمانية موجود فيه — لانتفاء الأسباب التى أدت إلى ظهورها؛ إذ

---

٤) البهى: العلمانية..... صـ ٣.

٥) راجع مقدمة كتابنا: " الإسلام دين ودنيا ".

لا وجود لقداسة رجال الدين فى الإسلام، كما هو الحال فى المسيحية، ولا مكان لاحتكار صواب الرأى لأى فئة فى المجتمع الإسلامى، كما كان الحال لدى قساوسة ورهبان الكنيسة فى المجتمع الأوربى، فآراء العلماء وتصورات المفكرين قابلة للنقد مهما كان منصب صاحبها، بل إن العلماء الأوَل لم يدعوا أن آراءهم هى حقائق مطلقة، فقد قال الشافعى: رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب. وقال أبو حنيفة: هذا أحسن ما توصلنا إليه، فمن جاءنا بأفضل منه تبعناه، وبالتالى فالساحة فى المجتمع الإسلامى مفتوحة لكل ذى رأى، والبقاء لمن تثبت المعطيات العصرية صلاحيته لحياة الإنسان، وفاعليته فى مسار التقدم والازدهار، فلم تقم الحضارة الإسلامية إلا فى إطار تعدد الآراء، ولم تنهض الأمة لإسلامية إلا فى ظل تلاقح الأفكار والرؤى، وهذه هى فلسفة الإسلام، امكنونة فى طيات النصوص الإلهية، مازالت واضحة لكل ذى فكر سليم، وعقل واعٍ. وستظل كذلك إلى يوم القيامة، قابلة للتأويل والتفسير عبر القرون لتلائم العصر، ولتلبى احتياجات المجتمعات قاطبة، بدائيها ومتحضرها. وسوف تكون صالحة لأى نظام للحياة على الكرة الأرضية، مادام هناك علماء يكشفون مكنونها، ويلقون الضوء على ما فيها من أسرار نصوصها، وتعبيرات أوامرها الإلهية.

يضاف إلى ذلك أن ما تنادى به العلمانية - وتدعو إليه — من مبادئ، قد أقرها الإسلام فى المجتمع الإسلامى قبل ظهور العلمانية فى المجتمع الأوربى بثلاثة عشر قرناً: فحرية الاعتقاد مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومبدأ المواطنة نادى به الرسول ﷺ فى وثيقة المدينة، وحرية التعبير، والإبداع، واحترام الآخر،...،...،... إلخ من معالم الحياة فى ظل الإسلام، ومواكبة التطور فى المجتمعات الإنسانية طريق مفتوح أمام الفكر

الإسلامى، وذلك بفضل الصياغة العامة لنصوص القرآن الكريم فيما يتعلق بشئون الحياة ونظمها، سواء فيما يتعلق بالفرد، أو يتعلق بضبط النظام فى المجتمع، ولذا كان الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان، فعلى العلماء أن يستنبطوا من نصوصه العامة ما يلائم حركة المجتمع وما يتفق مع نبض الحياة، وما يتناغم مع مقتضيات العصر، ولا يقفوا جامدين أمام ماتوصل إليه العلماء السابقون من تفسير للنصوص، لأن آراءهم كانت انعكاساً لثقافتهم وعصرهم، فلو عاشوا فى عصر آخر لاختلفت هذه الآراء، ولتغيرت الأحكام التى استنبطوها من النصوص التزاماً بما اشتهر بين الفقهاء: " **حيثما توجد المصلحة فثم شرع الله** "، واستنباطاً لمعنى آخر يُفْهَم من النص على نحو يحقق التناغم مع العصر، مع الالتزام بشرع الله، مع مواكبة التطور فى المجتمع الإنسانى.[٦]

المطلق والنسبى

" **المطلق** ": هو التام والكامل، المتعرى من كل قيد، واجب الوجود، المتجاوز الزمان والمكان، ولذا فهو يتسم بالثبات والعالمية. أما " **النسبى** ": فهم ما يُنْسَب إلى غيره ويتوقف وجوده عليه ولا يتعيَّن إلا مقروناً به، وهو مقيد وناقص ومحدود، مرتبط بالزمان والمكان، ويتلون بهما ويتغيَّر بتغيرهما، ولهذا فالنسبى ليس بعالمى، ولا ينطبق على كل البشر.

والمطلق هو أيضاً المبدأ الواحد والمركز. وفى غياب المطلق تصبح كل الظواهر نسبية متساوية، إذ لا يمكن القول بشأنه: " هذا أفضل من ذلك "، ولذا فإن الحديث عن منظومات " أخلاقية نسبية " هو من لغو الكلام، لأن استخدام هذه المنظومات فى التمييز بين الخير والشر، وبين العدل والظلم غير ممكن، لن

٦) وهذا هو منهجنا فى تناول الموضوعات فى هذا الكتاب.

تكون كل الأمور نسبية وذاتية، ومن ثم متساوية، بل إن التمييز بين الإنسان والطبيعة (أى بين الإنسان والحيوان) يصبح هو الآخر أمراً مستحيلاً، وهو ما يؤدى بالطبيعة البشرية ككيان مستقل عن حركة الطبيعة – المادة.... والنسبية الكاملة تؤدى إلى العدمية، لأنها تنكر وجود أى تميز أو اختلاف، أو مقدرة على إصدار الأحكام الأخلاقية، أو المعرفية، أو حتى الجمالية، أو على تغيير العالم، أو على إصلاح الذات، أو على تجاوز المعطيات الواقعية الطبيعية – المادية، ولذا فهى تنتهى بإنكار كل شيء: الأخلاق، والميتافيزيقيا، والكليات والإنسان. [٧]

كذلك يمتد حقل الكينونة غير المحدود من الحالة الأبدية للمطلق غير الظاهر إلى الحالات الكثيفة النسبية الدائمة التغير للحياة الظاهرة، تماماً مثلما يمتد البحر من السكون الأبدى فى القاع إلى النشاط الصاخب لطبيعته الدائمة التغير على مستوى السطح للأمواج. طرف منه سكون أبدى غير متغير بطبيعته، والطرف الآخر هو النشاط الدائم التغير.

يمثل الجانب النشط الدائم التغير الجانب النسبى للكينونة، فى حين يمثل الجانب الدائم السكون لقاع البحر الجانب الأبدى المطلق الذى لا يتغير. هذه هى علاقة الكينونة مع عالم الأشكال والظواهر الذى نعيش فيه. إن كلتا الحالتين: النسبى والمطلق، هما حالتى الكينونة. إن الكينونة هى أبدية لا تتغير فى حالتها المطلقة، وهى دائمة التغير بشكل أبدى فى حالتها النسبية.

لقد رأينا أن الكينونة هى الحقيقة النهائية للوجود، وهى المكون الأساسى للحقيقة، إنها كلية الوجود، هذا ما يكشف لنا أن الكينونة لها وجهان بطبيعتها

---

٧) المسيرى: المجلد الثامن / تعريف المفاهيم والمصطلحات الأساسية.

الأساسية: وجه مطلق، والآخر نسبى. مع بقاء الكينونة بشكل دائم فى حالة المطلق كلى الوجود، نجدها أيضاً فى النواحى الدائمة التغير فى الوجود الظاهرى والخلفية النسبية.

إن حقل الحياة بأكمله من الفرد إلى الكون هو ليس سوى التعبير عن الكينونة الأبدية المطلقة غير المتغيرة، وكلية الوجود فى النواحى النسبية الدائمة التغير للوجود. [٨]

ومن هذا يتبين أن المطلق عنصر أساسى فى الوجود بجميع أنواعه: إنسان أو حيوان أو جماد، أو بتعبير آخر: المطلق لازم من لوازم وجود الكائنات، روحية أم مادية. ولذا يصبح من لغو القول ما ينشره أحد المفكرين فى الصحافة من هجوم على الاتجاه الدينى، مدعياً أنه يؤمن بالمطلق، ويرفض النسبى، وهذا تصور ينبئ عن عدم فهم لطبيعة الدين، فهو — شأنه فى ذلك شأن الكائنات كلها — يشتمل على المطلق والنسبى، فتعميم المطلق على كل المسائل الدينية غيرصحيح، لأن المطلق فى الدين الإسلامى ينحصر فى نص القرآن الكريم فقط، أما تفسيره فهو من قبيل النسبى، لأن العلماء اختلفوا — ومازالوا يختلفون — فى تفسيره، الأمر الذى جعل الأحكام الشرعية متعددة فى المسألة الواحدة حسب رؤية الفقيه، وطبقاً لمتطلبات عصره وبيئته، وأشهر مثل على ذلك تغيير الشافعى لآرائه فى بعض الأحكام التى توصل إليها فى العراق، عندما جاء إلى مصر لاختلاف البيئة، **ألا يندرج ذلك تحت مصطلح النسبية فى الأحكام !**

وليست النسبية قاصرة على المسائل الفقهية، بل تشمل مفهوم كل النصوص القرآنية، ماعدا قطعى الدلالة منه، وهو قليل جداً، فالغالب الأعم من نصوص

---

٨) شبكة المعلومات الدولية: موقع الإشراق.

القرآن الكريم يحتمل أكثر من وجه، كما سنبينه فى القضايا التى سنعرضها فى هذا الكتاب، بل إن النصوص القرآنية تحمل معانٍ لاحصر لها، أكثر مما بيناه، سوف يكشف أسرارها العلماء عبر العصور المقبلة، ليثبتوا للقاصى والدانى صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وإمكانية تطبيقه لنظم الحياة المختلفة على سطح الكرة الأرضية مهما اختلفت درجات حضارتها، وتنوعت أساليب تفكيرها، وتباعدت مفاهيم حياتها.

المواطنة

المواطنة: صفة دالة على المطاوعة والمشاركة، وهى مشتقة من اسم الفاعل: واطِن، وهو من الفعل الرباعى: واطَن، والثلاثى منه: وطن، أى قطن وأمن فى مكان ما على بقعة من الأرض: البيت أو القرية أو المدينة أو الدولة، فكل منها وطن. ومفهوم المواطنة المعاصر هو:

الانتماء إلى مجتمع واحد يضمه بشكل عام رابط اجتماعى موحد فى دولة معينة. وتبعاً لنظرية " جان جاك روسو ": " العقد الاجتماعى "، فالمواطن له حقوق إنسانية، يجب أن تقدم إليه، وعليه فى نفس الوقت مجموعة من المسئوليات الاجتماعية التى يلزم عليه تأديتها.

وعليه فالمقصود من هذا المصطلح: العضوية الكاملة والمتساوية فى المجتمع بما يترتب عليها من حقوق وواجبات، وهو ما يعنى أن كافة أبناء الشعب الذين يعيشون فوق تراب الوطن سواسية، بدون أدنى تميز قائم على أى معايير تحكمية، مثل: الدين أو الجنس أو اللون أو المستوى الاقتصادى أو الانتماء السياسى والموقف الفكرى، ويرتب التمتع بالمواطنة سلسلة من الحقوق والواجبات، ومن أهمها: المساواة، والحرية، والمشاركة، والمسئولية الاجتماعية.

هل يعترف الإسلام بهذا المصطلح بهذا المعنى؟

ينكر كثير من المفكرين المعاصرين اعتراف الإسلام بالمواطنة، ظناً منهم – عن جهل بتاريخ الإسلام، أو تعصباً لأيديولوجيات تنفر من الحكم الإسلامى – أن الدولة الإسلامية لا تعترف بحقوق الأقليات التى تدين بدين آخر غير الإسلام، فهى لاتقر لهم بحقوق، ولا تسمح لهم بحريات فى المجال الدينى والاجتماعى، إلا ما تسمح الأكثرية لهم به فى حدود ضيقة جداً، فهم يعيشون على هامش الحياة فى المجتمع، وعليه فالدولة الحديثة التى نشأت فى أوربا هى التى سمحت لكل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم أن يعيشوا فى ظل الدولة متساويين.

وهذا الفهم ليس صحيحاً، بل إنه يتجاهل التاريخ الإسلامى الذى سبق الدول الحديثة فى الاعتراف بحقوق الآخر، وبالتساوى بين كل الناس مهما اختلفت عقيدتهم فى وقت – وهو القرن السابع الميلادى – كان التعايش بين أصحاب الأديان والعقائد المختلفة فى مجتمع واحد يكاد يكون مستحيلاً؛ فلم تقبل الأغلبية الدينية الاعتراف بالآخر، فضلاً عن السماح له بممارسة طقوسه وتطبيق شعائره فى حياته الاجتماعية فعاشت الأقلية الدينية – فى كثير من المجتمعات الإنسانية – مضطهدة، لم تهنأ بحياة كريمة، ولم تأخذ حقها فى الوجود، اللهم إلا ما يجود به الآخر عليها، حتى جاء الإسلام فأعلنها صريحة مدوية على لسان نبيه ﷺ فى حجة الوداع: " **أيها الناس..... كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى....** "، كذلك عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة واستقر بها، رأى أن سكانها يتألفون من ثلاث قطاعات اجتماعية: المسلمين، واليهود، والمشركين، وكانت التقاليد العربية قائمة على رابطة الدم والقرابة، لكن الوضع الجديد غيَّر هذه العلاقة،

فأصبحت: مسلمين (مهاجرون وأنصار)، ويهود، ومشركون عرب، فرأى الرسول ﷺ بثاقب فكره وإلهام من الله أن يرسى قواعد جديدة تنظم العلاقة بين المسلمين - وهم من قبائل متعددة -، ومشركون عرب - وهم أيضاً من قبائل مختلفة - ويهود - ولا تضمهم قبيلة واحدة - بل كانوا بطون وعشائر متعددة.

صاغ الرسول ﷺ قواعد التعامل بين هذه المجموعات البشرية — المختلفة فى دينها، والمتعددة فى أسس الترابط بينها — فى وثيقة، عُرِفَت باسم: " وثيقة المدينة"، وأطلق عليها العلماء والمفكرون فى العصور اللاحقة: " وثيقة السلام "، لأنها أرست مبادئ السلام بين القبائل العربية المتحاربة، وبينهم وبين اليهود الذين كان بينهم وبين العرب المجاورين لهم ضغائن وإحن، فوحدت هؤلاء جميعاً فى جبهة واحدة، يتناصحون فيما بينهم، ويتآزرون على من يعتدى عليهم، فهم يد واحدة على من يهدد بناءهم الاجتماعى، ووحدتهم السياسية.

جاء فى هذه الوثيقة أنها كتاب من محمد النبى (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب (أى سكان المدينة من عرب ويهود) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم:

- أنهم أمة واحدة،
- وأنهم يد واحدة على من ابتغى أو ظلم، أو ارتكب إثماً أو فساداً، فهم عليه جميعاً، حتى ولو كان وَلَدَ أحدهم.
- وأنه لا يحل لأحد أقر بما فى هذه الوثيقة أن ينصر مجرماً،
- وأنهم جميعاً يحاربون من حارب أهل هذه الصحيفة،
- وأنهم يد واحدة على من هاجم يثرب،
- وأن هذه الوثيقة لا تحول دون التصدى للظالم مهما كانت هويته،

- وأن من خرج من المدينة فهو آمن، ومن بقى فيها فهو آمن إلا من ظلم أو ارتكب إثماً.

إن هذه الوثيقة مثال واضح للتعايش السلمى بين الأعراق والأجناس المختلفة، ونموذج فريد للقوانين الدولية التى تدعو **للمواطنة** فى الدول المختلفة، وصيغة مثلى للتفاهم بين الشعوب على مستوى الإنسانية، ومما يزيدها إجلالاً وإكباراً أنها صدرت ونُفِّذت فى بداية القرن السابع الميلادى، فكانت فريدة فى مبادئها، عظيمة فى قواعدها التى وُضِعَت للتعامل بين الناس على أساس المساواة بينهم جميعاً رغم اختلاف أجناسهم وأعراقهم، و تعدد عقائدهم وأديانهم.

أرست هذه الوثيقة مبادئ تأخر ظهورها فى الغرب قروناً، فلا يحق لأحد أن يدعى أن الإسلام لا يعترف بالمواطنة، أو أن الدولة الحديثة بمساواتها بين المواطنين، مسلمين وغير مسلمين تتناقض مع الحكم الإسلامى، أو أن أسس تعامل الحكومة الإسلامية مع رعاياها يختلف عن قواعد الحكم فى العالم المعاصر، فَتَحْتَ ظلها يتمتع كل مواطن بالحرية فى عقيدته، وكل مناحى حياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى يتفق عليها المواطنون، وتلبى قواعد وتعاليم كل دين، فالاختلاف فقط فى التعبير اللغوى، فوثيقة المدينة يمكن أن يطلق عليها: " العقد الاجتماعى " كما عرَّفها " جان جاك روسو "، ويمكن أن تعرف بأنها مبادئ دستور لدولة مدنية، فالمضمون واحد، وإنما الاختلاف فى التعبير حسب تطور اللغة وظروف العصر.